

الأدب في خدمة المجتمع

مثل من الأدب الأمريكي

للاستاذ س . م

”إن الأمريكيين يكرهون الانغماس في القراءة كما يكرهون الانغماس في أي شيء آخر“

وهذا كلام حسن جدربنا أن نستمع إليه . لأنه يجب أن تكون لكل قارئ غاية تمثل في برنامج لندراسة والنمو والرقى . وكذلك يجب أن ندرك أن الثقافة ليست زينة وزخرفاً . وإنما هي جهاد وكفاح يقوم بها الفرد لكي يرفع نفسه من البيئة الاقليمية والنظر القروى إلى البيئة العالمية والنظر للبشرى ، أو يخرج بها من ضيق التخصص الذى تقتضيه الحرفة أو الفن الخاص إلى سعة التعميم الذى يشعرونا بالاندماج في نشاط وجهد عالميين فتكبر بذلك شخصيتنا وتوسع آفاقنا .

فالأمريكيون يكرهون القارئ الذى يلهو بالقراءة ويجعل هذا اللهو يستغرق معظم وقته ، كما يكرهون القراءة جزافاً للتسلية أو لقتل الوقت ، وهم أكثر الأمم تقديراً وتكبيراً لقيمة الوقت ، والأدب والثقافة عندهم يجب أن يكونا في خدمة المجتمع ، وذلك الأديب الذى يعيش في ”البرج العاجى“ هو أبعد الأخيلة عن أذهانهم ، كما أن تلك الحركات التى شاعت في أوروبا في وقت ما مثل ”الفن للفن“ أو أن الفن أو الأدب يجب ألا تكون له غاية اجتماعية — هذه الحركات لم تعرفها أمريكا ، فالأدب عند الأدباء الأمريكيين يتفاعل مع المجتمع ، وهو ليس أدب الفراغ ، وإنما هو أدب الكفاح ، وهو أبعد ما يكون من المخدرات الذهبية .

والواقع أن السنين العشرين الماضية قد جعلت الحركات الأدبية السابقة بشأن مهمة الأدب سواء في أوروبا أو أمريكا لغوا لا قيمة له . فإن الأديب المصرى قد ألقى نفسه في عاصفة من القلق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى انتهى بما يعانيه العالم في الوقت الحاضر من كوارث قد لا نكون قد عبرنا سوى القليل منها . ولا يزال الباقي في طى المستقبل القريب . ووجد نفسه لهذا السبب مكلفاً بأن يكون في مسكر التطور الجديد يدعو للسلام والمدانة الاقتصادية والإحاء البشرى .

وذلك الأديب الذى يقول في عصرنا بأن الأدب ليس له شأن بالرقى الاجتماعى إنما هو أديب عث يعمل في خواء أوفيا يسميه ”البرج العاجى“ : والعالم في كوارثه المدلحمة وغنى

وعند ما نتحدث عن لأدب أو الثقافة الأمريكية يجب ألا نهمل الصحافة — جرائد ومجلات — من اعتباراً ، لأنها في أمريكا من أعظم وسائل الثقافة . وقد حدثت حادثة قبل سنوات دلت على مقدار ما تقوم به الجرائد اليومية من الخدمة الثقافية للجمهور ، فإن أحد الناقدین ذكر إحدى الجرائد بأنها قد أفسحت صفحاتها للإعلانات فاقتضبت بذلك المكان الخاص بالمقالات الثقافية والأدبية والعلمية . وقدت عليه هذه الجريدة رداً عمياً بأن عمدت إلى عدد من أعدادها التي تناوضا النقد وحممت ما فيه من آداب وعلوه وأخرجتها مجلداً . نخرج كتاباً حوياً للفنون والآداب والقصص والبحوث الاجتماعية والعلمية .

هذا عدد واحد من جريده يومية ، وله يكن مختار ولا مهيناً ، بل هو العدد أو أحد الأعداد التي تناوضا نقد الكاتب . وجميع الجرائد الأمريكية تسير على هذا النعرار من العاية بالثقافة العامة . وقد نطن أن هذا يؤثر في تأليف الكتب ويؤجرها للمراحة ، ولكن الواقع الذي أثبتته الاحترار أن المراحة في الثقافة تزيد الاستهلاك ولا تنقصه .

وقد نبتت جذور الأدب الأمريكي في أوروبا أو في بريطانيا خاصة . والآداب الانجليزية هي لهذا السبب تراث يتغذى به الهمم الأمريكية . ونحن الأدب الأمريكي عاش منفصلاً نحو ٣٠٠ سنة كان في بدايتها ضعيفاً ضئيلاً ثم قوى بعد الاستقلال وعاش مدة القرن التاسع عشر وهو ينظر الى الأدب الانجليزي نظرة الأخ القاصر يحاول التمنص من أخيه الأكبر الرشد ، حتى إذا كان هذا القرن العشرين رأينا الاستقلال تاماً وأمارات الشباب والقوة بادية بل بارزة .

ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الأدب الأمريكي حتى حين بدايته ضعيفاً في تلك القري الصغيرة الناشئة بهجرة الأوربيين إليها كانت يتزعزع نزعاً خاصة عليها طابع البيئة ومزاج المهاجرين . فإن هؤلاء تركوا أوروبا وهي مفتتة بالحروب السياسية والدينية ، فكان أول همهم أن يجعلوا التسامح المذهبي عاماً بل قاعدة لحياتهم الجديدة . ثم هم وجدوا أرضاً بكرًا ولكنها كانت تتجهمهم في غاباتها ووعورة جبالها وأنهارها ووحشية سكانها الأصليين ، فتكون لهم هذه الظروف مزاج جديد هو التفاؤل والكفاح معا .

وانشئت أول مطبعة في الولايات المتحدة سنة ١٦٤٠ فكان على مؤلفاتها هذا الطابع وهذه الطوايح : التسامح والتفاؤل والاقتحام . وهذه الصفحات لا تزال الميزات الغالبة للأدب الأمريكي حتى يومنا .

ولكن الكفاح لطبيعة بل الكفاح للأمرنديين — سكان أمريكا الأصليين — كان يستغرق كل جهد وكان المهاجرون في شغل عن الثقافة ببناء بيت أو إنشاء عزبة أو مقفاته عصابة . ولكن التنبه السياسي الذي عم السكان في جهادهم للاستقلال منذ سنة ١٧٧٠ جعل

الأفكار تغلب بالتطبيقات عن الحكومة والمجتمع والديمقراطية ، فاصطدمت الآراء وعبئت الأذهان للدفاع عن قضية الاستقلال. والعادة أننا حين ندافع عن قضية عادلة نجد أننا نحن ننفع بهذا الدفاع بنقل ما تنتفع بنا هذه القضية ، لأننا ندرس المبادئ ونصفي العناصر ونبين وجوه الحق من جوانب الضفيان . ولذلك يزداد التحرك الثقافي في أوقات النهضات. وتبدأ النهضة الإقليمية فتنتهي بقوة هذا التحرك الى أن تكون نهضة إنسانية ، وهذا ما نجده في حركة الاستقلال الأمريكية سنة ١٧٧٦ ، فانه يبرز لنا كاتبان أحدهما توماس بين الذي يدعو الى الديمقراطية والحرية والجمهورية ، والآخر بنيامين فرانكلين الذي يمكن أن نصفه بأنه أول أمريكي له الميزات الأمريكية ، فانه كان حاملا في مطبعة ، ثم صحفيا ، ثم مؤلفا ، ثم سياسيا يشترك في صوغ "اعلان الاستقلال" للأمة الأمريكية وفي أثناء ذلك يقوم بتجارب علمية مثمرة، وبتأليف كتب في الأدب منها ترجمته التي لا تزال تقرأ بلذة وفائدة الى اليوم .

ألسنا نرى في هذه الحياة شها من اديسون أو فورد؟ ذلك الطراز من الرجل الأمريكي الذي ينشأ حاملا فقيرا يمارس أحط الحرف ، ثم يجد ذكأؤه في مرتع الحرية والمساواة والإحياء الذي يعيش فيه ما يخصه ويخيه فيزكو ويزدهر حتى يصير قائداً من قادة الأمة في السياسة والعلم والاختراع ؟

وفيما بين سنة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ أى النصف الأول من القرن التاسع عشر لانكاد نجد أدبيا يقربه . ولكن الأفكار كانت تختمر لانقلاب جديد ، ففي سنة ١٨٥٢ نجد كتابا ترجمه السيدة هاريت بيتشستو باسم "كوخ العم توم" فيشير عاصفة في أنحاء الولايات المتحدة لأنه يصف ما يكابده العبيد السود من القسوة والفظاظة واستبداد ساداتهم ، ويكون هذا الكتاب من الأسباب المعجلة للحرب الأهلية بعد نحو عشر سنوات لتحرير الزنوج ، فهنا نرى كتابا في الأدب أى قصة شعبية قد أدت الى حركة اجتماعية باردة . كما رأينا من قبل كتابا لتوماس بين الذي ذكرت هنا بعنوان "التعقل" يؤدي سنة ١٧٧٦ الى تحريك الشعب الى الثورة وطلب الاستقلال كما اعترف بذلك واشتغلون نفسه زعيم الاستقلال .

فنحن إذاء حركتين بارزتين في تاريخ الولايات المتحدة كان للكتاب أكبر الأثر في إيجادهما، هما حركة الاستقلال سنة ١٧٧٦ وحركة التحرير سنة ١٨٦٠، وهذا هو ما نقصد بأن الأدب الأمريكي كان على الدوام يتفاعل مع المجتمع وينحدم رقيه ونموه .

وفيما بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠ نجد كوكبة من الكتاب الذين لا تزال مؤلفاتهم تعد مصابيح للعصر الحاضر ، وأشهرهم بالطبع هو أمير سون الذي يقرأ في إنجلترا كما يقرأ في الولايات المتحدة ، والواقع أن هذا الكتاب الذي أحال المقالة قطعة فنية لا تقل — بل ربما تزيد —

في قيمتها على القصة قد عاش في أمريكا بين مجتمع أمريكي . ولكن جوه الذهني كان انجليزيا ، وكثيرا ما نحس ونحن نقرأه أنه ينزع إلى كارليل ، وهو وإن لم يعرف هوس كارليل في عبادة الأبطال مثلا فإنه قد اقترب منه في كتابه ” المثلين ” أي الذين يمثلون فكرة بشرية وهم عنده أفلاطون ، وسودينبورج ، ومونتاني ، وشكسبير ، ونايليون ، وجيته ، وهو بهذا الاختيار يدل على أنه كان بعيدا عن الروح الامريكي الديمقراطية قريبا من الروح الأوربي الذي يكبر الزعيم .

ونجد كتابا آخر توفي سنة ١٨٦٢ يدعى ثورو ، وهو تولستوى أمريكا . ترك المدينة وعاش في الغاية يقنع بالأعشاب والقليل من الأجر الذي يحصل عليه بعمله اليدوي في المزارع المجاورة لكي يشتري الملابس أو سائر الضرورات . وهو يدعو الدعوة الحارة إلى الاقبال على الطبيعة والكف عن اقتناء الزخارف المدنية التي تقيد حريتنا بدلا من أن توسعها . وليس شك في أن الحضارة الامريكية كانت في وقته تحتاج — بل هي تحتاج الآن أكثر مما كانت في عصره — إلى مثل هذه الدعوة ، لأننا ونحن ننأمل المكفاح الاقتصادي وإنجيل النجاح السائد للمجتمع الأمريكي ووفرة الآلات وتكليفها لا تتمالك من أن تساءل : هل الحضارة الأمريكية في خدمة الأمريكيين أم هم الأمريكيون الذين يخدمون الحضارة ؟ وهنا ذكر كلمة هوتون أحد كتابهم : لقد أصبح الناس آلات الآلهة .

وشبه ثورو كاتب تحريدي والت هويمان . فإنه ينزع نزعه ويؤلف كتابا بعنوان ” أوراق العشب ” ويحذر الامريكيين من المادة ويسك عبارة ” العصيان المدني ” التي أخذها عنه غاندى . وهو كبير الآمال في الديمقراطية الأمريكية التي يعتقد أنها ستتم وتحرر من التقاليد والتواعد الموروثة وتخط نفسها منجبا جديدا في الحياة تتكون منه الشخصية الإنسانية العالمة .

ولكن هؤلاء الأدباء الذين ذكرنا ليست لهم تلك الشهرة العالمية التي لعظماء المؤلفين . فإنهم — باستثناء اميرسون — كانوا يعيشون في جو أمريكي محض . على أننا نجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أدبيا أمريكيا أوربي الشهرة يكتب ويسير بالسفارة الثقافية بين القارتين هو هنرى جيمس . وكان يعنى كثيرا بايضاح الفرق بين حضارة أوروبا المعجوز وحضارة أمريكا الناهضة ، وكيف يؤثر هذا الفرق في تكوين الشخصية . ومع أن هنرى جيمس قضى معظم حياته في إنجلترا حيث مات سنة ١٩١٦ فإنه بقى في لبابه أمريكيا صريحا ، وهو شقيق ولیم جيمس زعيم الفلسفة والسيكولوجية في الولايات المتحدة . وقد صاغ هذان الشقيقان القالب الثقافي الجديد في أمريكا .

ووحدة اللغة والتقاليد وتراث الثقافة بين مجلتي الولايات المتحدة كل هذه تجعل الأديب الأمريكي ينزع إلى إنجلترا ويؤثر خصوصيتها التي كسبتها بتاريخها على مدى الأجيال

ويقربها - روحيا وماديا - من أوروبا . ولذلك نجد أن أميرسون يكتب في أمريكا وهو يحس أن جذوره في إنجلترا . ورأينا هنرى جيمس يعيش في قرية قريبة من لندن . ونرى في عصرنا الشاعر الأمريكي ت. س. اليوت يعيش في لندن . وينقل الدعوة البشرية الأمريكية إليها .

وفي الولايات المتحدة الآن ثلاثة من نجوم الأدب هم درايزر . وسنكلير لويس . وايتون سنكلير . وثلاثتهم منغمسون في المجتمع ، كفاحهم الثقافي هو في الواقع كفاح اجتماعي . وآخرهم - ايتون سنكلير - هو داعية سافر للاشتراكية تغلب الدعاية فيه على الفن . وهو يرى أن الأدب لا يزيد على أن يكون دعاية . وهذا يدل على رغبته الحارة في تغيير المجتمع . أما الاثنان الآخران فعنايتهما بالفن كبيرة ومؤلفاتهما أقرب إلى التراجم الشخصية والسير منها إلى القصص ، وهما يبيان على المجتمع الأمريكي سطحيته في الثقافة وتعلقه بالبهارج في الحضارة .

ونستطيع أن نذكر كثيرين من الأدباء الأمريكيين ، ولكن ما قلنا في أول هذا المقال وهو أن الأديب الأمريكي لا يعرف البرج العاجي ينطبق عليهم جميعا لأنهم يرون أن الفن ليس له غاية أخرى سوى خدمة المجتمع ، وقد تكون هذه الخدمة بإظهار عيوبه وبعثه على التغيير وهذه هي العبرة التي قصدنا إليها .

س . م